الفصل الثاني

تأملات في قصار السور:
نحو استنباط منهجيات كلية فاعلة

obeikandl.com

obeikandl.com

أولًا:

الطريق إلى سلام العالم!

تأملات في سورة القدر

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ (سورة القدر 1/ 97 – 5).

(1) مدخل:

إن القول بأن سلام العالم واحد من مقاصد الكتاب العزيز العليا يمثل حقيقة بالغة السطوع، لا تخطئها العين.

إن مراجعة الكتاب العزيز كاشفة عن هيمنة إرادة تحقيق سلام العالم على نصوصه، وهو ما تكشف عنه كثافة ورود اللفظة المحورية(السلام) في آياته الكثيرة المتوزعة على قسمي القرآن الكريم: المكي والمدني معًا.

إن السلام خلوص من الآفات جميعًا في ذات بدن الإنسان ونفسه وعقله ودينه، وهو التخلص من المكروه بكل أنواعه وصنوفه، وهو الصلح وقتل الشر في الوجود، واستنبات الخير في العالم.

يقول تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (سورة يونس 25/ 10)، ويعلق الماوردي في تفسيره النكت والعيون(تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، القاهرة، ووزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، سنة 1993م، (2/ 210)، " يعني: الجنة. وفي تسميتها دار السلام وجهان: (أحدهما) لأن السلام هو الله، والجنة داره، (الثاني) لأنها دار السلامة من كل آفة". وهذه آية بالغة الوضوح عن مقصد الكتاب العزيز في إرادة تحقيق سلام العالم.

وسورة القدر نص جليل في بيان الطريق إلى سلام العالم!

(2) معجم سورة القدر

تتأسس هذه السورة الجليلة على بعض الكلمات المفاتيح التي شكَّلت بنيتها الدلالية الأساسية، ويدور في فلكها بعض آخر من الكلمات التي تعين على هذا التأسيس.

1. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الفعل أنزل فعل متعدٍ، يحمل دلالة العلو، ودلالة الاستيعاب والاستغراق، إذ يقول أهل اللغة أن الإنزال :" حط الشيء من العلو" كما جاء في نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، (ص: 127).

والكلمة محتملة لمعاني القول، والبسط والإنزال نفسه. وهو مما يدور في فلك هذه المعاني معاني الضيافة؛ إذ النزيل ضيف. وهو ما يحمل على العناية بإكرام الكتاب العزيز عمومًا؛ لأنه ضيف، وللضيف الإكرام حقًا وواجبًا!

1. ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ كلمة السورة، وعنوانها، ومفتاح أساسي لفهمها، وهي في هذا السياق مثال عبقري للاستجابة لمفهوم تزاحم المعاني وتقديره في الكتاب العزيز، فالقدر بتحكيم الاشتقاق تعني الشرف والمنزلة والمكانة الرفيعة السامية. وتعني التضييق، وسد المنافذ، وتعني التقدير وتوزيع الأجور وهي جميعًا دلالات مقصودة هنا؛ ذلك أن ليلة القدر ليلة ذات شرف ومنزلة في نفسها، والشرف مواهب توهب، وهي شرف لمن تعلق بها وقدَّرها، ترقى بمنزلته ومكانته. وليلة القدر ليلة تضيق فيها منافذ الشر، وتُغَلُّ المردة، الشياطين، وتفيض فيها الرحمة الربانية على الخلق، ليلة القدر ليلة تقدر فيها أقدار الخلق، وأرزاقهم، ومنازلهم.

2. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ من القواعد الكلية في التفسير قوله إن كل "ما أدراه" في القرآن فقد أدراه، والدراية معرفة علم وإخبار، وهو دال على تحقق اليقين، وهو سر استعماله هنا، ليتقرر في الإجابة بعد حصول اليقين من صاحب التنزيل الذي يخبر ويعلم.

3. ﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل متحول من أفعل إلى فعل بعد سقوط همزته. وهو اسم جامع دال على كل طيب ممدوح، مرغوب فيه، وهو الكرم. وهو في الكتاب العزيز متفجر الدلالات مكتنز المعاني، فهو الإيمان، والإسلام، والمال، والعافية، والأجر، والفضل، والطعام، والظفر، والنفع، والصلاح، والقوة، والقدرة، والإصلاح، والصيانة، والحسن، وكل ما هو ضد الشر، وهذه المعاني التي ذكرها علماء الوجوه والنظائر، كما في نزهة الأعين النواظر (ص:285 – 288) مراده جميعًا هنا. وهو ما يعني أن الإخبار عن ليلة القدر في مواجهة: "ألف شهر" يتضمن كل هذه المعاني التي ترقى بمكانتها ومنزلتها.

4. ﴿أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تعني على ظاهر أمرها: ألف شهر، والأعداد في غير باب الأحكام تطلق يراد بها التكثير، والقصد إلى" ألف" من الأعداد لأنه أعلى ما كانوا يتصورونه منها. ومن ثم يكون أمر ليلة القدر على الظاهر خير من عمر الإنسان كله وإن طال فتجاوز الثمانين عامًا، أو هي خير من الزمان كله؛ لأن ألف الشهر، تعبير عددي يقصد إلى بيان الكثرة، واستعظامها. واستعمل"الشهر" لمناسبة شهر رمضان الذي فيه الليلة المباركة، وفرارًا من" السنة" وما فيها من معاني الشدة والجدب، وتحقيقًا لانسجام الفاصلة العزيزة في السورة الكريمة.

5. ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ كلمات هذه الآية جميعًا تفيض بالنور، لقد كان اختيار الفعل تنزل ببنيته الصرفية الدالة على الاستمرار، وعدم التوقف والكثافة دالًا جدًّا في هذا السياق.

والفعل مضارع، ومشدّد العين، ولازم، وهو ما يعني الاستمرار والكثرة، والكثافة، ومحبة النزول ممن يتنزل.

والملائكة جمع يدعم ما في التنزل من كثافة وازدياد، وهم جنس مطيع، محب لما يأتي من الأعمال، رمز للنور والرحمة معًا.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾: الروح هي سرُّ الوجود والحياة، ومادة حفظه، وهي الرحمة. وهي في هذا الموضع محتملة هذه المعاني جميعًا، وهي كذلك في هذا الموضع دالة على جبريل، وفي ذلك تشريف لعالم الإنسانية المؤمنة، وتحقيق لمنازل المؤمنين ممن لم يروا أو يشهدوا زمان التنزيل، وإثبات لرسومهم.

ولعل في استعمال ضمير (ها) في: فيها من دون: "هن" مع جوازها دفعًا لتوهم تصور دعم أنوثة الملائكة، نفي احتمال كون الملائكة بناتًا وإناثًا.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ : الإذن أمر، والإذن: السماح والموافقة، وهذه المعاني لازمة جميعًا هنا، فالإذن أمر، لأنه لم يكن للملائكة أن ينزلوا من دون أمر منه سبحانه، والإذن: السماح، بحكم الفعل اللازم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ الأمر في الآية، الرزق والأجل، وقد قرئت: (امرئ) وهذه القراءة تثبت أن الملائكة وجبريل يسلمون على كل امرئٍ مسلم، كما تأولها بعض التابعين.

﴿سَلَٰمٌ﴾ هذه هي الكلمة الثانية المفتاح في هذه السورة الجليلة المباركة، والسلام مادة خام، وتكثيف عميق لمعاني البراءة من الشرور، والتجسد معاني الخير والبركة، وللخلوص من الآفات والمعايب والنقص، والأمراض. وبهذا تكون ليلة القدر هي التجسد الحي لطريق سلام العالم بالمعاني المادية والروحية جميعًا.

3 - تراكيب السورة:

يقع تحليل التراكيب في مرحلة تالية لتحليل المعجم، فيدعمه، ويحسم مشكلات الاحتمالات فيه، ويزيد من عطائه.

1 - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أكد الكتاب العزيز قضية الإنزال؛ لجلالها وليقطع مادة الشك حول دعوى تأليف القرآن الكريم، وليقرر علويته وتساميه، وانقطاعه عن الصناعة البشرية. وجاء اسم إن ﴿نا﴾ وخبرها جملة أنزلناه مشمولين بدلالة

الجمعية تعظيمًا للمنزل من جانب، إذ ضمير المتكلمين من جهة المفرد تعظيم، وللدلالة على استجابة الملائكة لأمر الله تعالى بإنزال الذكر الحكيم. وهو بعض من خصائص حديث الله عن نفسه في الكتاب العزيز.

والهاء في جملة الخبر مفعول به يفسره القرآن الكريم، واستعمل ضميرًا لذيوع أمر الكتاب العزيز وانتشاره والعلم به. ومجيء الخبر جملة فعلها ماض توكيدًا، ودلالة على تمدد الإنزال وتنوعه.

1 - ﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وشبه الجملة من الجار والمجرور المُعرَّفة بالإضافة متعلق بالفعل ينير زمان التنزل إن إجمالًا أو ابتداء تنزله منجَّمًا مفرقًا على مدة البعثة الشريفة. إن اختيار الليل ظرفًا للتنزل الكريم رحمة؛ إذ الليل ألطف من النهار، والوحي ثقيل الوطأة، والليل أرجى لانفتاح النفس، واستجابة الضمير، وقد استقر في التاريخ الاجتماعي أن النهارات للمعاش، والليالي مخازن للتزكية!

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ جملة مركبة استفهامية، والاستفهام فيها للتنبيه لاستقبال الجواب اليقيني؛ لأن الدراية معرفة متقنة!

وهو نمط من الاستفهامات دال على تعظيم المسئول عنه، ورفعته، وإعلاء شأنه.

3. ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هذه جملة جواب مثالية ذكر فيها المبتدأ المعرفة ليلة القدر مع تقدمه في السؤال تشريفًا للمذكور، ولذة بتكرره، ودفعًا لتوهم الخلط في تقديره إن جاء مضمرًا!

﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ خبر منعوت بشبه الجملة تخصيصًا وبيانًا، والجملة الاسمية جاءت خالية من قرائن الزمان لينفتح حكمها على امتداد الزمان، وليبقى أبدًا، وهو نوع من مثيرات الأمل والتفاؤل واستمرار التشريف.

4 - ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ جملة جيدة طويلة صالحة لأن تكون خبرًا بعد خبر، وفصلت عن سابقتها للارتقاء بقضية تنزل الملائكة، والفعل تنزل مضارع لازم، والملائكة فاعله.

والروح فيها محتملة للعطف على الملائكة فتكون من جملة المتنزلين، وفيها شبه جملة متعلقة بالفعل، متممة لمعناه، ومحتملة للاستئناف فتكون الروح مبتدأ وفيها خبره، وهي مرادان ليحققا استيعابًا لمعان مجتمعة، تقرر تنزل الروح، وتقرر تعظيم خبر كونه في جملة الملائكة تشريفًا لليلة، وللذين يحيون الليلة من المؤمنين على الزمان.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ شبه جملة من جار هو الباء، ومجرور هو إذن متعلق بالفعل ﴿تَنَزَّلُ﴾ أو شبه جملة متعلق بمحذوف حال من فاعل الفعل تنزل وهما معنيان مرادان: أحدهما يتمم معنى الفعل، والآخر يوحي بأن التنزل مؤقت مرتهن بالليلة المباركة، ثم ينقطع!

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ هي سلام خبر مقدم لبيان منزلته، وهي مبتدأ مؤخر يفسره ليلة القدر. إن اختيار الخبر مصدرًا، نكرة مع العلم بأن الخبر هو عن المبتدأ في المعنى، أو هو هو على حد تعبير الزجاجي في جملة تفتح الباب لتفهم أن الليلة المباركة سالمة، ومسلمة، وسلامة، وتسليم، ونعيم للمؤمنين.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ شبه جملة متعلق بسلام بيانًا لمدة استمراره.

إن هذا التعالق العجيب بين جزئيات تراكيب هذه السورة الجليلة كاشف عن أن سلام العالم متحقق بالارتباط بما تنزل في هذه الليلة، وبما قرره في وجود الناس!

4 - عطاءات السورة

لقد نهض المعجم والنحو ببيان الكثير من المعاني المفردة في السورة الكريمة القصيرة وثمة قضايا كلية تفيض بعطائها السورة، هي كما يلي:

أولا: تلح الآيات الكريمة على أن الارتباط بالمنهج المتسامي المتعالي هو الطريق لسلام العالم، وهو التعالي المستفاد من الدلالة المعجمية والصرفية والنحوية لفعل الإنزال المتعدي.

وظهرت قضية الإنزال متعاظمة عن الإسناد الفعلي للضمير التعظيمي، المؤكد؛ ليتقرر في الوجدان المسلم عظمة ما كان في هذه الليلة العظيمة الشريفة.

ثانيًا: كشف بناء السورة الكريمة عن تقدير عجيب لليلة القدر، وحياطة أمرها بالبيان المستفيض الذي لا يعرف حذفًا على مستوى البناء النحوي، منعًا من مخاطر التقدير للمحذوف، وهو ما ظهر من التكرار، ومن الإجابات المثالية التي سيقت على الاستفهامات المصممة بأفعال اليقين.

ثالثًا: كشف بناء السورة كذلك عن نوع تحقيق للتلذذ بذكر ليلة القدر، فقد تكرر ذكرها ثلاث مرات، مع ما في ذلك من تنبيه إلي فضيلة الليل بما هو مصنع التزكية الضابطة لحركة العمران وطلب المعاش في النهار!

رابعًا: حرصت السورة على دعم الحقائق الاعتقاد في بنائها النحوي عندما استعملت الضمير(ها) بديلًا عن الضمير(هن) العائد على الملائكة منعًا عن الاقتراب من شبهة تصور الملائكة بناتًا أو إناثًا.

ومبدأ دفع التوهم مبدأ علوي حاكم في البناء اللغوي للكتاب العزيز معجميًا ونحويًا.

خامسًا: ظهر التنوع الإعرابي لجمل السورة الكريمة، وهو طريق عبقرية لاستيعاب تزاحم المعاني الواردة على السورة.

سادسًا: كشف الدوران حول الكلمتين المفتاحين: القدر/ وسلام عن نوع من الترابط الحميم بينهما، بحيث يمكننا أن نقرر أن بينهما ترادفًا سياقيًا، فليلة القدر هي مصنع السلام العام، والسلامة من الآفات، وصفاء النفس، وارتياح الروح، وأمن العالم.

إن هذه السورة البديعة تكشف عن الخير المتكرر المستمر الذي يرد الحياة إلى المنهج الضابط لحركتها في الوجود الإنساني.

القرآن ما يزال قائمًا، والملائكة الذين نزلوا به زمان البعثة ينزلون ليشهدوا الذين يرتبطون به من المعاصرين، ويحبونهم.

والله من بعد ذلك كله يعد، ووعده الصدق، بالسلام لأولئك الذين يحيون في ظل منهجه، ويسعون إلى استعادة النور الذي عمَّر الوجود مع فجر بعثة النبي الخاتم، ﷺ.

ثانيًا:

الطريق إلي نجاة العالم!
تأملات في سورة العصر

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (سورة العصر 103/ 1 – 3)

(1) مدخل

مثل الكتاب العزيز منذ نزول الوحي الكريم طريقًا لنجاة العالم، وهو الأمر الذي عبر عنه بمدونة واسعة التنوع لمشتقات الجذر اللغوي(ن/ ج/ و)، مستغرقة التوزع على زمان التنزيل جميعًا، مكية ومدنية معًا، مستوعبة للأفراد والجماعات والأمم ما داموا مؤمنين، متفقة على ماضي التاريخ ومستقبله معًا.

يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة يونس 103/ 10)، ويقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة الأنبياء 88/ 21)، وهو طريق لتحقق معاني النجاة جميعًا، خلاصًا من الضرب وسلامته من الهلاك، وارتفاعًا وترقِّيًا فى الوجود على ما يقرر أصحاب الوجوه والنظائر (انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة 1987م؛ ص:281/ 582).

وأصبح الارتباط بالكتاب العزيز طريقًا مانعًا الشقاء حقيقة يقينية واضحة يقول تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ (سورة طه 2/ 20)؛ وهو ما يعني أن فحص الكتاب الكريم، والدوران معه حيث يدور هو الطريق لتحقيق الارتياح!

(2) معجم سورة العصر:

يمثل المعجم خطوة محورية في برامج قراءة النصوص وتحليلها، والحق أن معجم الكتاب العزيز نمط فريد فى اكتنازه، وطاقته المتوهجة المناسبة لتزاحم المعاني، وهو المبدأ الذي يحكم بناء الكتاب الكريم.

1 – العصر كلمة تعني الزمان الممتد، أى هي الدهر، وربما صح أن تكون ما يسبق الغروب، وربما صح أن يكون المعنى: صلاة العصر، أو عصر النبي ﷺ: وهي جميعًا مراده استيعابًا بالتزاحم المعاني، فإن إرادة بيان أهمية هذه الأربعة معاني المتداخلة غير مستنكر، ولا مستبعد.

غير أن إرادة معنى الزمان الدهر يصبح الأرجح بتحكيم السياق، أو قرائن ما بعده في نظم السورة الكريمة.

وتحليل العصر في ضوء قوائم الاستبدال المعجمي كاشف عن تحكيم مبدأ مهيمن في بناء الكتاب العزيز، هو دفع التوهم، فقد ترادف العصر والدهر ترادفًا تامًّا، وتطابقًا، كما يقال: وزنًا ومعنًى، غير أن إيثار العصر كان دفعًا لتوهم إرادة تعظيم الدهر، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يوحي بتأخير رتبته، وهو الأمر الذي يمنع من مادة الكتاب العزيز من اتهامه بشبهة التناقض الظاهري.

إن الزمان خزينة النجاة، وهو ما كان سببًا في العناية به.

2 – ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إن أظهر ما يكشف عنه استعمال هذه الكلمة من معنى هو: جنس الإنسانية، وتصبح :"ال" هنا للجنس المفيد للاستغراق والعموم.

3 – والكلمة صالحة من أي جانبي أصل اشتقاقها حملت، فالإنسانية خاسرة إن استجابت للَّهو المفضي إلى الهلاك، وهي الدلالة المستكنة في جذر (أ/ ن/ س)، والإنسانية خاسرة إن استنامت للنسيان، وذهلت عن مواريث الوحي، وهو المعنى الكامن في الجذر(ن/ س/ ي)!

﴿خُسْرٍ﴾ الخسر أصل فى النقصان، وعدم الزيادة، وهي فى هذا السياق يمكن أن تتضمن معاني: الشر والهلاك، والضياع، والتردي، والمآل المذموم. وهذه الصيغة الاسمية (فُعْل) بضم الفاء وسكون العين تحمل لديمومة والاستقرار، بما يزيد في النذارة والتحذير.

3 – ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان فى الكتاب العزيز محور، وقطب وهو بداية النجاة، بعد تحصيل الإقرار باللسان وانعقاد القلب عليه، وطمأنينة القلب إلى صدق ما حصل الإقرار به، والعمل بمقتضى ما كان مما صدق به إقرارًا واعتقادًا، على حد تعبير ابن الجوزى في نزهة الأعين(ص:145).

وفحص سياقات ورود هذه اللفظة المفتاح كاشف عن المعاني التالية:

1 – التصديق.

ب – الإقرار باللسان.

ج – الاعتقاد بالقلب والجنان.

د – التوحيد.

هـ – الإيمان الشرعي الجامع لأركان ثلاثة: إقرار لساني/ واعتقاد قلبي/ وعمل جارحي!

و – الصلاة.

ز – الدعاء.

ومن هنا فإن بداية تحصيل طريق النجاة الكامن في تحصيل هذه المعاني في كل جيل على امتداد الزمان.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: إن قيمة الفعل الكلامي، والطمأنينة القلبية في الترجمة العملية في الواقع، وهو بعض ما منح التصور الإسلامي في الحياة قوة أو طاقة إيجابية مقتحمة!

إن عمل الصالحات، جنس الخيرات باب لا ينفصل عن مفهوم الإيمان.

﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ هذا الفعل من وزن التفاعل، وهو وزن دالٌّ على المشاركة، يتجاوز حدود الفرد إلى نطاق الجمعي، ويترقى نحو التذكير لمحاربة النسيان، بما هي أصل في معنى الإنسان على من يرى اشتقاقه من الجذر (ن/ س/ ي).

وهذا الفعل يفتح الباب أمام التنمية المعرفية، وترقية التعليم، والنهوض بمسئولية الإعلام، استجابة لطبيعة الإنسان، وتعاطفًا معها.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحق هو الصواب والحكمة بإطلاق، وهو التوحيد والكتاب العزيز، وهو الله تعالى وما يصدر عنه في سياقات وروده في الذكر الحكيم، وهو الإسلام، وهو العدل والصدق، وإيضاح الحلال من الحرام، وكل ما هو ضد الباطل.

﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ إن الصبر فى المعجمية العربية حمل النفس على التحمل، وحبسها عن الجزع، وهو في الذكر الحكيم بمعناه اللغوي، وبمعنى الصوم، وبمعنى الجرأة والقوة والصلابة في ميادين الحق.

4 – إعراب السورة، أو تحليل التراكيب.

5 – ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ الواو حرف جر وقسم، والعصر: مقسم به بعد الواو، والافتتاح بالقسم بيان عن خطر قضية الوقف، وتنبيه إلى جلالها، ومركزيتها في حياة الإنسان.

والأصل أن يقف المجتمع العلمي أمام أقسام القرآن بالفحص والدراسة استملاءً لمكامن الخطر فيها. والقسم هنا هو الذي دفع استعمال الدهر، منعًا عن توهم إرادة تعظيمه خروجًا من فتح شبهة التناقض في الكتاب العزيز كله.

"إن الإنسان لفي خسر" إن حرف توكيد، والتوكيد في النحو العربي باب واسع تقوية للقضاة، ومنع من حملها على المجاز أو التهويل.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: اسم إن منصوب، وهو الطرف الأول في القضية المراد تقويتها، وحملها بعيدًا عن دائرة المجاز أو التهويل.

﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾: اللام مؤكدة، صانعة للتوازن في توزيع معاني التقوية والتوكيد بين طرفي الجملة، في حرف جر يفيد الظرفية، وخسر: اسمها مجرور بها، شبه الجملة: متعلق بمحذوف خبر إن، وهو ما يعني أن قضية الحكم بخسران الإنسانية محاطة من جانبيها بما يخيف، ويبعث على التنبه المفرط، نظرًا لخطر المآلات والنتائج.

وهذا التوزيع لعناصر التوكيد يعكس رحمة الرب سبحانه بالإنسانية، إذ النذارة هي عين الرحمة، والمبالغة في توكيد النذارة مبالغة في الإرشاد إلى الراحة!

وإلا حرف استثناء، وهو هنا حرف أمل وبشرى، يفتح الباب أمام خلق فرصة للنجاة من العموم المرعب الذي يقرر: خسران الإنسانية جميعًا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مستثنى، وهو ما يعني أن انفتاح باب النجاة وإن كان قليلًا، مضيقًا بحكم العادة التي تقرر أن المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه – فهو قائم يفتح باب البهجة، ويعين على التماسك في مواجهة طوفان الدمار والخسران المحيط بالعالم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ / وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ / وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ الواو حرف عطف فيها جميعًا. وعملوا الصالحات الفعل، وفاعل، ومفعول به.

وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فعل، وفاعل، وجار ومجرور، والجمل جميعًا متعاطفة، لا محل لها من الإعراب، صلة الموصول الذين لا قيام له بغيرها.

وهو ما يعني أن الاستثناء من الخسران لن يتحقق إلا لمن استجمع نفسه أربعة مبادئ كلية، هي:

أولا: الإيمان.

ثانيًا: عمل الصالحات.

ثالثًا: التواصي بالحق.

رابعًا: التواصي بالصبر.

إن تحليل التراكيب كاشف عن بركان مزلزل لإيقاظ الإنسانية من مصير مرعب جدًّا، ومزعج جدًّا.

4 - عطاءات السورة

1 - ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ ربما صح أن نقرر أن الكتاب العزيز في مجمله قصة عظيمة للنذارة التحذير، تأسيسًا على أن النبي ﷺ هو النذير المبين!

ومن هنا يفهم حفاوة الكتاب الكريم بالقسم؛ لفتح الباب أمام العقول والنفوس لتوقي مخاطر النهاية، وفزع القيامة.

وهو مدخل جليل لتثمين الوقت الذي هو بمثابة خزينة الأعمال، وآلة تحصيل ما به يكون الحكم على منجز الإنسان.

إن هذا القسم البديع ربما صح معه أن نلخص الحضارة والحياة معًا بأنها قطار الدقائق والساعات!

وعلى قدر تحميل عرباته بالأعمال تكون النجاة من عدمها.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ هذا الجواب الذي وقع بعد جملة القسم، وعبر من جهتين: جهة التمهيد بين يديه بالقسم من الله تعالى، مما يجب معه تقدير خطر القضية التي يدخل إليها بتعظيم آلة الزمان، الذي هو في الحقيقة جزء من هوية الحياة الإنسانية.

والآية من الناحية التركيبية تحيط ركنيها بطاقة عجيبة من عناصر تقوية مدلولها، وهي العناصر المتمثلة فى عناصر التوكيد(إن/ اللام).

وجهة استبعاد قرائن الزمان من بنيتها؛ لتجعل حقيقتها باقية على الزمان الممتد، لا تعرف خرمًا، ولا انقطاعًا هو بعض ما يرقى بخطرها، إذ الحكم أصيل، ومستمر، ومستوعب، وعام.

والقضية المحمولة في العبارة تعلن خسران الإنسانية، وهو الخسران المستديم غير المنقطع بدلالة فراغ التركيب من قرائن الزمن، وهو الخسران المستمر بدلالة استعمال ﴿خُسۡرٍ﴾ غير مشتق لكى تطرد عن ساحتها معاني الانتقال المؤقت!

ولعل البنية الاشتقاقية للإنسان في الآية تحمل في ضميرها مسوغات الحكم بالخسران، وهما سوَّغا الأنس الملهي، واللهو الصانع للحضارات المريضة، والنسيان المذهل عن حقائق التوحيد والتزكية والعمران.

واستعمال في الظرفية، مرعب مؤكد لمعنى الاستغراق الوارد في "ال" التي للجنس من جانب: لقد صورت الآية الإنسانية كرجل غارق في بئر الخسران!

3 - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جاءت إلا بابًا مشرعًا يمنح الأمل في النجاة من بئر الخسران، غير أن هذا الباب المفتوح على ساحات النجاة من جحيم الخسران لا ينفتح إلا لمن امتلك مفتاحه.

جاءت إلا لتمثل مفتاحًا لباب الأمل. وجاءت أربعة الجمل المتممة للصلة بمثابة أسنانه التي تعينه على فتح المغلاق الموصد.

وقد انضم إلى "إلا" استعمال المستثنى اسمًا موصولًا مصحوبًا جملة صلته الممتدة الطويلة بالعطف؛ لكى يجعل الأمل باقيًا في الأجيال جميعًا، ممتدًا في الزمان جميعًا، مستوعبًا للمكان جميعًا،

لقد تجلت رحمة الله فلم يأت المستثنى اسمًا مشتقًّا، إذ المشتقات متنقلات مؤمنـات والله تعالـى يريد لباب الأمل أن يشـمل الذين حصَّلـوا ثمنه على الزمان والمكان.

والناجون هم من حصَّلوا في أنفسهم اطمئنان القلب وانعقاده على حقيقة السماء، ولهج لسانهم بوحيه، وما يأمر به، وتعاونوا على القيام بالحق، وصانوه، وتحملوا في سبيله، ولم يجزعوا، ولم يقنطوا، وفهموا عن الله مراده سبحانه.

إن هذه السورة الجليلة مثال فريد للنصوص المكتملة فى الكتاب العزيز الدالة على واحد من أعظم مقاصده، وهو الدلالة على سبيل نجاة العالم.

الآية منهاج كامل يكشف عن حقيقة الوجود، وصعوبته، ويشرح ما به تكون النجاة، ويعصم طالبيها من مزالق الطريق، بما يحمي عقولهم، ويقي نفوسهم؛ ليبقى الكتاب العزيز دومًا هو الطريق إلى نجاة العالم.

obeikandl.com

ثالثًا:

تأملات فى سورة الكوثر

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ (سورة الكوثر 108 / 1 – 3).

معجم السور و لغتها

إن أول مفتاح فى طريق تحليل أي نص يكمن فى تأمل معجمه اللغوي، ثم الترقي خطوة أخرى نحو فهم تراكيبه مع إجراءات أخرى كثيرة تتعلق ببنية النص الموسع، وهو هنا النص العزيز كله الذي منه هذه السورة من حيث تحكيم أهدافه الكبرى المعلنة، والسياقات الحاكمة للتعامل معه سواء كانت من داخله أو من خارجه وهو ما ينهض بعبئها تضافر علوم كثيرة جدًّا.

1 – افتتح رب العزة سبحانه السورة بالتوكيد المستفاد من (إنّ) متحدثًا عن نفسه بصيغة الجمع لأمرين هما:

– الدلالة على عظمته سبحانه، وهو الشائع المتداول فى فهم مثل هذا الإسناد.

– و ربما كان هذا الإسناد إلى ضمير (نا) من قبيل نسبة الفعل الذى أمر به وهو الله سبحانه، ومن نفَّذ مراده وهم ملائكته الموكلون بطاعته، وهو الملحوظ فى كثير من آيات النص العزيز فى مثل هذا السياق حيث كانت عادة القرآن التعبير عما يأمر به الله سبحانه وينفذه خلقه بطريق الإسناد إلى الجمع مما تجد له أمثلة في:

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(الكهف: 81)

﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾(الأعراف: 57)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾(الإسراء: 82)

وهو بعض تجليات اسمه الجليل الشاكر.

و استعمال الفعل ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يدعم بإسناده إلى ضمير المتكلمين ما مر من جانب، ويوحي ولا سيما عند مقارنته بمجموعة من أفعال حقله الدلالي من مثل: وهب/ ومنح بشيءٍ من خصوصية تدور حول إمكان تخصيصه بما يكون من عطاء ورزق مترتب على تعب وكد ومجهود، بمعنى أن الإعطاء لا يكون إلا بعد بذل ممن سيعطى، وهو بعض ما توحي به دلالة الأخذ والتناول فى جذر المادة (ع ط و)، وربما يشهد لذلك قوله ﷺ أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، وفي الضمير (ك) وإن كان دالًا على النبي ﷺ معنى يتعداه إلى متابعيه بدليل بقاء الأمر فى الآية التالية في الأمة بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ، وإنما كان الأفراد بخطابه لاعتبارات عديدة منها اعتبار مقام النبوة الذي يقضي بكونه مبلغًا، ومنها اعتبار دفع شبهة تكذيب الله سبحانه إن جاء النص بأعطيناكم، وهو غير متصور مع النبي ﷺ فهو الوحيد المأمون بحكم اصطفاء الله سبحانه له من تكذيبه، أو من مظنة تكذيبه.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: وفي الكوثر دلالات كثيرة جدًّا بلغ بها القرطبي (216/ 20 – 218) ست عشرة دلالة هي كما يلي)نهر بالجنة/ وحوض النبي ﷺ في الموقف/ والنبوة/ والقرآن/ والإسلام/ وتيسير الإسلام وتخفيف الشرائع/ كثرة الأصحاب

والأمة/ والإيثار/ ورفعة الذكر/ ونور في القلب دلَّ على الله سبحانه/ والشفاعة/ والمعجزات/ ولا إله إلا الله محمد رسول الله/ والصلوات)

ورجح القول بأن الكوثر هو النهر والحوض يوم الموقف، لموقع الأثر الصحيح المرويّ عن النبي ﷺ فى تفسيره.

وإن كان لا يمنع، وهو ما سوف نبرهن عليه أن يكون معناه الأمة بشهادة الاشتقاق.

﴿ فَصَلِّ ﴾= أمر بإقامة الصلاة المفروضة علينا، وجنح بها غير واحد إلى الأمر بصلاة العيد، عيد الأضحى، بقرينة النحر.

وربما توسع فيها فكانت بمعنى أعبد.

﴿لِرَبِّكَ ﴾= اللام للغاية بمعنى أن على مقيم الصلاة أن يتغيا بها وجه ربه سبحانه.

والتذكير بالرب هنا؛ تنبيهًا لإنعام الله سبحانه وتفضله على خلقه، استجلابًا لمعاني الشكر، وتلطفًا إلى أنفس الناس بالتذكير بالنعم المتوافرة، وهو أمر مفهوم في سياق من كان يتعبد لغير الله.

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾= الغالب المتبادر لغة أنه أمر من الذبح، وهو أمر يفهم ذبح الأضاحي يوم الأضحى.

وهو قول يدَّعي أمرين: الاشتقاق من (ن ح ر)، ومناسبة أسباب النزول على من قال إنها نزلت في الحديبية حين منع النبي ﷺ والمسلمون عن مكة المكرمة فأمره الله سبحانه أن يصلي ثم يذبح ما كان يسوقه من الأنعام (البدن) وينصرف.

وهناك من فهم منها أفعالًا متممة لفعل الصلاة، أي اجعل يدك عند نحرك في افتتاح الصلاة برفع اليدين قبالة النحر، أو استقبال المصلي بنحره القبلة. والترتيب مرعيٌّ مستفاد من تركيب الجملة المبدوء بالأمر بالصلاة والمثنى بالنحر، ومن بعض ما صح عنه ﷺ من أنه كان يبدأ يوم الأضحى بالصلاة ثم يثني بالنحر.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الشانئ: المبغض الكاره، والصيغة الصرفية توحي بإمكان تجدد وجود المبغض، إذ المشتقات من نوع اسم الفاعل دالة على التنقل والتوقيت والتجدد، بمعنى أنه ليس حكرًا على زمان واحد معين، وهو ما يدعمه خلو الآية من عناصر زمنية، وهو ما لا يصح معه حصره فى شخص بعينه وقرئ شنئ على صيغة المبالغة (فعِل) واعتماد الصيغة الأولى أولى.

هُوَ= ضمير فصل استعمل فتحقق به ما يسمى بدفع التوهم احتمال الوصف في البتر، أي لولا وجوده لتوهم القارئ لأول وهلة أن الأبتر قد يكون وصفًا للشانيء وينتظر الخبر، وهو غير المراد فجاء الضمير؛ ليقطع هذا الاحتمال، ويصرف المرء إلى أن الأبتر هو خبر الشانيء ومصيره.

هُوَ= المقطوع ذكره من الخبر ماديًا ومعنويًا، فهو من لا ولد له وإن كانت له بنات على بعض استعمال قديم فى العربية، ثم توسع فى استعماله ليشمل المقطوع خيره كذلك، وإن كان الاستنباط له بالمادة.

وتأمل التعريف بأل ربما أوحى باستغراق البتر للشانئين، وربما أوحى بأن الشانئ هو المقطوع حقيقة، ولا مجال لتصور انبتار يدانيه.

وربما كان الاشتقاق على صيغة أفعل من أجل توكيد التفضيل من الدرجة القصوى، بمعنى أن الشانئ هو الأكثر انبتارًا من غير دخول فى مقارنة مع أنواع المنبترين الآخرين.

إعراب النص= تحليله من جهة التراكيب

1 - إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ

إن= حرف توكيد ونصب، والتوكيد وظيفة دلالة المقصود منها تقفي الكلام بالثقة في تحققه والنصب وظيفة نحوية تتطلب اسمًا وخبرًا.

نا= ضمير المتكلمين جاء على التعظيم له سبحانه أو على الحقيقة فى أنه الآمر وملائكته الطائعين هم المنفذون- مبني فى محل نصب اسم إن.

أعطيناك= أعطى= فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنا الدالة على الفاعلين، والفعل وإن جاء على صيغة الماضى يحتمل الدلالة على الحال والاستقبال، أي هو الذي أعطى سبحانه ومعطي الآن ويعطي بعد الآن، وصوغه على هيئة الماضي إقرارٌ للتحقق اليقيني. الـ نا ضمير مبني في محل رفع فاعل لأعطي والكاف ضمير المخاطب الدال على محمد ﷺ ضمير مبني في محل نصب مفعول به أول لأعطي.

الكوثر= مفعول به ثانٍ لأعطي. وجملة أعطي في محل رفع خبر إن والتقدير معطيك الكوثر، وعَدَل عن التقدير إلى التعبير بالفعل لاستغراق الزمان ماضيًا وحالًا واستقبالًا.

2 – فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ= الفاء حرف يفيد التعقيب أي الترتيب والتسبيب أو أي جعل الثاني نتيجة تلزم من الشعور بالفضل المتمثل فى العطية وهو مبني على الفتح.

صلِّ= فعل أمر مبني على حذف حرف العلة كما يقول النحاة العرب وهو مبني على تقصير الحركة الطويلة والانتقال بها من مقطع إلى مقطع، من مقطع مكوَّن من (ل + ى) إلى ل + – كسرة قصيرة.

والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره أنت عائد على المخاطب سلفًا وهو الكاف.

لربك: اللام حرف جر يفيد الغاية والاستحقاق أي بيان من نتوجه إليه وبيان من يستحق الفعل. حرف مبني على الكسر. و (رب) اسم مجرور باللام وعلامة جره الكسرة الظاهرة وهو مضاف.

والكاف ضمير المخاطب مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه، والإضافة هنا حقيقية محضة.

وجاءت شبه الجملة (لربك) متوسطة بين الأمرين صل/ انحر لتتعلق بهما، ولدفع توهم ارتباطها بأحدهما فقط.

وانحر= الواو حرف عطف مبني على الفتح أفاد الترتيب والجمع بعد إذ لم يكن يفيد الترتيب= بتطبيق النبي ﷺ، أي بصلاته أولًا ثم بنحره.

انحر= فعل أمر مبني على السكون لصحة آخره والفاعل مستتر وجوبًا تقديره أنت عائد على المخاطب ﷺ، ولا يخفى دلالة الأمر على الحضور المطلق فى حق كل متعبد بالنص.

3 - إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

إن= حرف توكيد ونصب مبني على الفتح.

شانئك= اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة وهو مضاف. والكاف ضمير المخاطب مبني في محل جر مضاف إليه على تقدير حذف اللام، أي إن شانئًا لك، ولعل في حذف اللام والتحول إلى الإضافة يوحي بمعنى حذف معنى الغائية، أي عدم وصول الشنآن إليه والابتعاد كذلك عن معنى الاستحقاق بمعنى أنه شنآن ظالم لا يستحقه ﷺ.

هو الأبتر: و قد يكون (هو) فى محل رفع مبتدأ ثانٍ والأبتر= خبره مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والجملة منهما فى محل رفع خبر إن.

وقد يكون (هو) ضميرًا للفصل لإخلاص الأبتر للخبرية لأن، أي دفعًا لتوهم كون الأبتر لو لم يأت (وهو) صفة للشانيء، ويظل المتلقي معلقًا فى انتظار الخبر، فجاء هذا الضمير ليفصل بين المبتدأ الذي هو شانئ وبين خبره الخالص له وهو الأبتر.

عطاءات السورة

إن تأمل آيات هذه السورة يمكننا من استنطاقها استنطاقًا لا يتصادم مع المأثور مما روى عن بعض تفسيرها، ويمكننا استنباط بعض المعاني التي تتحملها طاقات التأويل التي لا تخاصم بطبيعة الحال معجمها اللغوي باعتبار الحرص على هذا التواءم من أصول التفسير المستقرة التي تقرر ضرورة أن يكون القول في تفسير نص قرآني غير مصادم للمفهوم من اللسان العربي زمان التنزل الكريم من جانب،

وبالتالي غير مصادم لما تفرضه قوانين التركيب النحوي، و ما قد تفرضه بعض التقنيات البلاغية من جانب آخر، وسنقف أمام عدد مما نسميه عطاءات السورة في صورة فقرات نرجو أن نصنع إطارًا مترابطًا يخدم قضية مركزية هي (انكسار المعاديين للإسلام) محاطة بعدد من القضايا الدائرة في فلكها المعينة على تفهمها وتحققها:

(1) مضمون العطية الربانية

ظاهر النص يقرر أن الله أعطى نبيه كوثرًا معهودًا، وتوجه تفسيره وتأويله فى اتجاهين أساسيين، هما:

1 – اتجاه مادي (خير مادي أيًّا ما كان نوعه).

2 – اتجاه معنوي (خير معنوي أيًّا ما كان نوعه).

3 – وتميل هذه القراءة نحو اعتباره (الأمة)؛ أي أن الكوثر الممنوح للنبي ﷺ وهو الأمة يدعمنا فى ذلك الاشتقاق اللغوي الذي يقرر أن الكوثر بناء على زنة فوعل من الكثرة، بمعنى الخلق الكثيرين، وليس يمنع من ارتباط هذه التسمية بالتزاحم عند حوض أو نهر خاص بالنبي ﷺ لمن أخلص في متابعته والتأسي به.

وإذا كانت العطية (أمة/ أمة مرتبطة بالنهر أو الحوض) فإنه يلزمها منهج للتربية أو منهج للتنمية البشرية؛ لكي يتحقق لها التزاحم على نهره وحوضه ﷺ.

وأتصور أن طريق هذه التنمية لهذا الخلق/ الكوثر منضوٍ تحت جناحين كبيرين يمثلهما:

أ – الأمر بالصلاة، لرب العالمين.

ب – الأمر بالنحر، لرب العالمين.

وحرص النص الكريم على هذين الجناحين، وأحدهما من باب الفروض والواجبات وأعمدة الدين، وآخرهما من باب المندوبات والنوافل المشروعة أصلًا لتمام التزكية.

واستثمار مقولة التوليد الدلالي يقود إلى استخراج عدد هائل من دلالات رحم المحورين (الصلاة/ النحر) وهي دلالات تفرضها الأصول المعجمية والسياقات اللغوية وغير اللغوية كما يلي:

أولًا: تفجر الكلمة المحورية الأولى (صل) الدلالات اللازمة التالية:

1 – التطهر (شرط تبطل بدونه وهو في غير أفعالها) وهي مادية في المفتتح تؤول إلى معنوية بحكم ربط الصلاة بما تقود إليه فهي وسيلة إلى ما ورائها من نهي عن بغي ومنكر.

2 – العلم (وهو ما يلزم لإدراك طبيعة الميقات الزماني اللازم لإقامتها والمكاني لإدراك جهة القبلة ونوع المكان الصالح لها ونوع الماء اللازم لوضوئها والملابس الساترة للعورة والحفظ.. إلخ)

ج – الوحدة (فيما رتب الصلاة الجماعة من أجر فائق مقارنًا بالمنفردة، والتراص فى صفوف منتظمة والحرص على ذلك فى لين).

د – الهوية التاريخية (وهو ما يتبدى فى الحرص على الصلوات السرِّية على الرغم من تغير الأجواء التي دعت إليها؛ لتذكر الأمة جهاد الجيل الأول الذي عانى ولم يستطع أن يجهر بصلاة في أوقات معلومة حكمتها اجتماعيات المجتمع العربي القديم)

هـ – التضحية (وهو ما يتمثل فى ضرورة التضحية بالأوقات والانصراف عن أي مشاغل).

و – الارتباط بالله سبحانه (وهو ما يتجلى في معناها اللغوي (الدعاء) وفي الإقبال عليه سبحانه وضرورة الخشوع بين يديه، ومناجاته بكلامه سبحانه، وإعلان الخضوع بالقول والحركة.. إلخ)

وهو ما يتجلى كذلك فيما تلا هذا الأمر من تقييده بقوله (لربك)

ز – الوعي (وهو المتمثل في ضرورة التعقل فليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها/ وترتب الزيادة عليها إن سها فيها صاحبها بما شرع من سجدتي السهو نكاية للشيطان ودحرًا له)

ح – تربية الأمة على مقاومة الخلل (بما شرع فيها من الفتح على الإمام إن أترج عليه (أي سكت في القراءة) وتصويب خطئه إن خلط فى قراءته، وعدم متابعته فيما يأتيه من زيادات فيها، وهو تدرج عجيب قلما توقف أمامه أحد)

ط – الحرص على الإتقان (مبدأ الجودة) وهو فيما تواتر من ضرورة الاطمئنان في أعمالها قيامًا وركوعًا وسجودًا ورفعًا منهما،

وفي عدم جواز إتيانها قعودًا مع القدرة عليها وقوفًا وعدم جواز إقامتها اضطجاعًا مع القدرة عليها قعودًا، والاطمئنان فى قراءة الفاتحة بما ورد من أنه ﷺ كان يقف عند رأس كل آية من آياتها، وإن كان المعنى يستلزم الوصل.

ثانيًا: تفجر الكلمة المحورية الثانية (انحر) عددًا آخر من الدلالات التي تشتبك مع ما مر داعمة ومؤكدة، وهي كما يلي:

1 – الاستنقاذ الإنساني مهمة جليلة راسخة، وهو ما يبدو فى تأمل الأضحية باعتبارها قربانًا لله سبحانه، وهو في أصله القديم افتداء الإنسان أنزله الله تعالى، وهو من أعلى دلائل الرحمة الربانية بالخلق.

ب – ترسيخ مفهوم التضحية المادية، وهو ما تجلى في تقسيم الأضحية والحضِّ على إخراج أغلبها لنفع الناس.

ج – الحرص على مفهوم الوحدة والتأليف بين دوائر طبقات الناس وهو عكس نسك الأضحية؛ حيث يظهر عناية الإسلام بتأليف دوائر الأسرة ثم الأقارب ثم الجيران ثم الناس جميعًا ولا سيما الفقراء.

د – العناية بمفهوم تواصل الأمة تاريخيًا باعتباره الوحدة التاريخية مقومًا من مقومات الهوية؛ إذ استمرار الأمر بالنحر إلى وقت نزول القرآن الكريم ثم استمراره إلى اليوم يعكس هذا الامتداد التاريخي الذي هو في أصله تذكر جهاد امرأة ارتبطت بالله سبحانه وتعالى، وأقبلت عليه، وحملت هم استبقاء الإيمان في الأرض في صورة الحرص على وليدها وحياته ومؤازرة زوجها في دعوته.

هـ – التطهر المعنوي، وهو ظاهر في السنة العملية التي كان يحرص عليها النبي ﷺ – ويأمر من نوى الأضحية ألا يقص شيئًا من شعره أو أظافره حتى ينحر لتذهب وتشهد له.

و – العناية بمفهوم التعبد العملي الذي عائده على أكبر عدد ممكن وفي ذلك إشارة واضحة إلى قيمة الطاعات ذات العائد على الأمة وتقدمها على غيرها من العبادات الذاتية الفردية وهو ما يعكس ضرورة تربية الأمة على فقه الأولويات.

ومن الملاحظ أن تنمية (الأمة/ الكوثر/ – الخلق الكثيرين) وفق هذين المحورين تقود إلى الحصول على عطية الله سبحانه وهو النهر، وإن كان المعنى هو الخلق، فإن عطية الله هذه تستوجب رعايتها وتنميتها وفق المنهجية التي تخطط لها الآية الكريمة بمحوريها المركزيين (الصلاة/ النحر).

وبعد ذلك يأتي الضمان الإلهي الذي يقع فى أي وقت وهو قدرته سبحانه على بتر أي عدد مبغض شانيءٍ كاره.

والوعيد بكسر أي مبغض شانئ يشمل القطع المادي والمعنوي بحكم الدلالة المعجمية أولًا؛ لأن البتر قطع الذنب (المادة) وقطع الذكر (المعنوي)، بما يحمله من الانكسار والهزيمة ومن الغياب عن قيادة البشرية وانقطاعه الحضاري.

وفي الآية الأخيرة مجموعة من المعاني يحسن تأملها:

1 – يقول أبو السعود 951هـ في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) 9/205 معلقًا على قوله تعالى ﴿إن شانئك﴾ أي: مبغضك كائنًا من كان" وفي هذه العبارة الأخيرة من معاني الاستغراق الشيء الكثير؛ أي أن الموعود الإلهي متوجه بحكم ظاهر النص إلى كسر الشانئ أيًّا ما كان شأنه.

2 – وفي سبيل دعم تفسير الكوثر بالأمة يمكن استثمار التقنية البلاغية التي تحمل عنوان (رد الأعجاز على الصدور) واستعمالها هنا يقود إلى ترجيح هذا المعنى الذي قدمناه بعد شهادة اللغة له. إن الوعيد بالانتقام يكون من جنس ما سبق من جريمة، بمعنى إذا كان اتهام كفار قريش للنبي وتعييرهم له ﷺ بأنه مقطوع الذكر من جرَّاء موت ولده عليه السلام– فإن المنطقي أن يأتي الرد العقابي من جنس ما بدر منهم فيكون الأمر كما يلي:

(الكفار يرمون النبي بانقطاع نسله وذكره ﷺ

الله يتوعد الكفار بقطعهم استغراقًا).

ومن ثم يكون الوعد بالعطية في استفتاح السورة ردًّا على دعوى الكافرين، ولو أنهم رموه بالفقر والعوز لكان منطقيًا أن يعد الله نبيه ﷺ بعطية من الحقل الدلالي المتعانق مع دعواهم فيكون إنا أعطيناك الكوثر/ النهر والخير الكثير المادي، ويكون المتوقع ختام السورة أن يتوعد الله كارهيه ﷺ بقطع الخير عنهم.

في هذا النص الكريم يقين في مناصرة الله سبحانه للأمة ما استقامت على منهج واضح تخطط قسماته ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، وفي هذا النص الكريم دعوة للاطمئنان بما جاء في افتتاحه من توكيد العطاء، وبما وقع في ختامها من ضمان كسره سبحانه للعدو ضمانًا دائمًا مستمرًّا على الجهة التي تناسب جبروته من غير لبس ولا غموض مهما كانت قوة هذا العدو، ومهما كان ارتفاع بطشه وقوته.

obeikandl.com